

تلقي التحليل النفسي في النقد العربي بين التأصيل والإغناء الناقد حسن المودن أنموذجا

The Reception of Psychoanalysis in Arab Criticism: between Authentication and Enrichment: The Critic Hassan Al-Moden as a Model

ميلود عرنيبة*

الكلية متعددة التخصصات بأسفي، جامعة القاضي عياض (المغرب)

molodarniba@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/05/16 تاريخ القبول: 2025/07/04 تاريخ النشر: 2025/07/31

Abstract:

This research aims to highlight the efforts of the critic Hassan Al-Moden in enriching and developing the psychoanalysis in Arab criticism; this is done by keeping pace with its most important developments, which start from the hypothesis that it is possible to reverse the traditional direction of the method: from applying the method to the text towards applying the text to the method. He also adapts a number of the mechanisms and concepts of this method within the context of Arab culture in order to revive it. These mechanisms are: textual analysis, the brother complex, interventionist criticism, possessive criticism, refinement criticism, and theoretical fiction. We examined these contributions across his work in theory, application, and translation, attempting to demonstrate the ability of the Arab intellect to contribute to the development and enrichment of critical knowledge alongside Western efforts. The study emphasizes the originality of Al-Moden's approach, grounded in texts of Arab-Islamic culture, taking into account their historical specificity and contextual particularities, demonstrating the possibility of starting from within this culture, and developing concepts that enrich psychoanalysis.

Keywords: textual analysis, the brother complex, interventionist criticism, possessive criticism, refinement criticism, and theoretical fiction.

ملخص البحث:

يسعى هذا البحث إلى إبراز جهود الناقد حسن المودن في إغناء التحليل النفسي في النقد العربي وتطويره؛ وذلك من خلال مواكبته لأهم مستجداته التي تنطلق من فرضية إمكانية قلب تطبيق المنهج على النص إلى تطبيق النص على المنهج، والعمل على تهيئة عدد من آليات هذا المنهج ومفاهيمه في تربة الثقافة العربية من أجل بعث الروح فيه من جديد، وهذه الآليات هي: التحليل النصي، وعقدة الأخوة، والنقد التدخلي، والنقد التلبّسي، والنقد التجويدي، والتخييل النظري.

وقد عملنا على استقصاء ذلك في مختلف جهود الباحث تنظيرا، وتطبيقا، وترجمة؛ محاولين الاستدلال على قدرة العقل العربي على الإسهام في تطوير المعرفة النقدية وإغنائها جنبا إلى جنب مع الاجتهادات الغربية، مع بيان أصالة اجتهادات المودن بانطلاقه من نصوص الثقافة العربية الإسلامية، مراعيًا بذلك خصوصية هذه النصوص واختلاف شروطها التاريخية، مبرهنا على إمكانية الاجتهاد من داخل هذه الثقافة، وتطوير مفهومات تغني التحليل النفسي.

الكلمات المفتاحية: التحليل النصي، وعقدة الأخوة، والنقد التدخلي، والنقد التلبّسي، والنقد التجويدي، التخييل النظري.

مقدمة:

من المعلوم أن النصوص وجدت وأنتجت لتقرأ وتُتلقى، ومن هنا شكّلت قراءة النصوص وتحليلها من أجل فهمها وتأويلها إشكالية شغلت النقاد؛ ذلك أن هذه النصوص لا تفصح بقدر ما تضرر، ولا تنشر بقدر ما تطوي، ولا تصرح بقدر ما ترمز وتلمح؛ فكانت مهمة النقد هي محاولة استنطاق المضمّر، ونشر المطوي، وتأويل المرمز، وبعبارة أعم محاولة القبض على معاني النصوص ومقاصدها؛ غير أن هذه المغامرة لم تكن عرضاً قريباً، والطريق إليها لم يكن سهلاً سالكا دون عقبات. فكانت البداية نقداً انطباعياً وذوقياً تفرض فيه ذاتية الناقد نفسه، وما لبث هذا النقد أن ظهرت محدوديته، وبدا عجزه؛ لذلك كان ولا بد أن يفكر النقد في آليات جديدة ومعايير موضوعية تستند إلى أسس معرفية وعلمية تجعل من النقد ممارسة علمية لها قواعدها وضوابطها بما يجعله تخصصاً مستقلاً.

ومع النهضة العلمية الغربية وما صاحبها من ثورة في مجال الصناعة والعلوم تمّ قطع الصلة مع العصور الوسطى، وظهر فكر حديث نزع نحو العلمية والتجريد. وفي هذا السياق انبثقت مناهج النقد الحديث، متوسلة بمجموعة من الإجراءات والخطوات التي تستند إلى أسس نظرية؛ فلسفية، وعقدية أحياناً، ساعية إلى مقارنة النصوص ومحاولة تطويعها من أجل القبض على معانيها ودلالاتها من جهة، واستكشاف بنياتها وأساليها وأشكال تكوينها من جهة أخرى. فظهرت تيارات نقدية مستقلة، لكلّ تيار آليات اشتغاله وخلفياته التصورية عن مفهوم النصّ والإنسان والكون. وانتظمت هذه التيارات في شكل مناهج لكلّ منهاج رواده ومنظروه، ومدخله وآلياته في قراءة النصوص وتحليلها.

ومن أبرز الإشكالات التي تطرحها المناهج تلك المتعلقة بمدى قدرة المنهج على وضع اليد على "حقيقة" النصّ والإمساك بجميع عناصره، وتفجير كلّ مكنوناته، وبلوغ المرام في فهمه وتأويله من جهة، ومن جهة أخرى بمدى قابلية النصّ واستجابته لإجراءات وخطوات المنهج الموظّف في مقارنته.

ولقد وقع بعض المناهج في التعسف على النصوص فوضعها على سرير بروكست حتى تستجيب لإجراءات وخطوات هذا المنهج أو ذاك؛ فكانت النتيجة انتصاراً للمنهج وترجيحاً لكفّته على حساب كفة النص الذي أصبح مجرد وسيلة للبرهنة على جدوى المنهج وفعاليته. فضاعت خصوصية النصوص ومعانيها وتمّت التضحية بكثير من عناصرها. ومن هنا نبّه "نقد النقد" إلى الخطر المتزايد للنقد الذي قد يظهر في إفقاره العمل الأدبي، وتضخيم ذاته، والوصول إلى "حد يصبح فيه مكتفياً بذاته، ويصبح العمل الأدبي مجرد ذريعة"¹.

وفي إطار إشكالية النص والمنهج سنتناول في هذه الدراسة جهود الناقد حسن المودن الذي اختار التخصص في مجال صعب تنكّب عن طريقه عدد من النقاد وهو التحليل النفسي؛ وهو صعب "لأنه محفوف بالمخاطر، وأيضاً لأن السّير فيه يتطلب جهداً إضافياً"²، مركزين على إسهاماته واجتهاداته الرامية إلى تطوير هذا المنهج وتجديده وإغنائه تنظيراً وتطبيقاً؛ قراءة وترجمة وتأليفاً.

وسننطلق من افتراض أساس وهو أن تجربة الناقد حسن المودن في تلقي منهج التحليل النفسي تجربة خاصة تجاوزت تطبيق المنهج على الأدب وتجريبه في مقارنة النصوص إلى ما هو أعمق من ذلك، وهو السعي الدؤوب إلى استنبات هذا المنهج في الثقافة العربية بما يراعي خصوصية نصوصها وشروط إنتاجها، وإلى محاولة تطوير هذه المقاربة وإغنائها بناء على افتراض مفاده أن النصوص العربية قديمها وحديثها، بما هي نصوص غنيّة بالقضايا الإنسانية، قادرة على أن تبعث الروح في منهج التحليل النفسي وتنعشه، وتمنحه فرصة لتجديد أسئلته وتطوير عدد من مفوماته، إذا ما أحسن الباحث الإنصات لهذه النصوص.

1- التحليل النفسي والأدب: تطبيق المنهج على النص

إن علاقة التحليل النفسي بالأدب علاقةً عريقةً وراسخة؛ فقد كان مؤسس هذا الفن³ سيجموند فرويد قارئاً كبيراً للأدب، يمتلكُ خزائناً مهمةً من كتبِ الأدب، يعتبرها مرجعاً أساساً في استخلاص آليات التحليل النفسي وقواعده وإجراءاته، فقد سُئل ذات يوم عن أساتذته وملهميه في هذا المجال فأجاب: "بحركةٍ مشيرة إلى رفوفِ خزائنه حيث تظهرُ روائعُ الأدبِ العالمي"⁴، إنها علاقةٌ تبادليةٌ شكّل فيها كلّ طرفٍ سنداً ودعماً للآخر، "فقد أعطت دراسةُ النصوص الأدبية للتحليل النفسي الوليدَ فرصةً تجاوز الحقلِ الطبي المحض، ليجعلَ من نفسه نظريةً عامّةً للنفسية والصيرورة الإنسانية. كما غيرَ التحليلُ النفسي للأدب المشهدَ النقدي"⁵.

كان مؤسس التحليل النفسي فرويد أوّلَ من عمل على تطبيق آليات التحليل النفسي على الفنّ عموماً والأدبِ منه خصوصاً، متّخذاً من النصوص حقلاً تجريبياً لرصدِ الآليات النفسية المتحكّمة في ذات المبدع؛ مفترضاً أن للأعمال الأدبية تشكّل مجالاً خصباً للمحلل النفسي يمارس فيه عمله التحليلي؛ فالكتاب المبدعون عنده حلفاء مخلصون من "الواجب تقديرُ شهادتهم حقّ قدرها"⁶. وبناءً على هذا الافتراض عكف في بدايته على قراءة أبرز نصوص التراث الغربي مثل: "أوديب ملكاً"، و"هاملت"، و"الإخوة كارامازوف"، مقابلاً بينها وبين الحالات المرضية التي كان يعالجها إلى أن تمكّن من صياغة عقده المشهورة "أوديب"، والتي تحوّلت فيما بعد إلى افتراض بارز يقوم على إقرار اللاوعي في كلّ إنتاج فنيّ.

غير أنّ هذه المناولة، حسب الدارسين، لم تسلم من سهام النقد؛ فأنهت بآنها اختزلت الإنتاج الأدبيّ إلى تعبير مباشرٍ عن عصابِ المبدع، واعتبرت الفنّ صدئاً مباشراً للزغزغات الجنسية. كما لوحظ على تطبيق التحليل النفسي على الأدب كون الناقد يُعامل النصّ الأدبيّ بعدّه مجرد شاهدٍ. وقد اعترف فرويد نفسه بمحدودية منهجه هذا وعجزه عن الوصول إلى حقيقة الإبداع قائلاً: "علينا أن نُسلم بأنّ طبيعة الإبداع الفنيّ بعيدةٌ عن متناولنا بواسطة التحليل النفسي"⁷، قاصراً دوره على المساعدة في فهم مظاهر الإبداع وحدوده.

لقد كانت غاية التحليل النفسي أول ما ظهر عند الغرب هي كشف العوامل النفسية الكامنة وراء الإبداع الأدبيّ، وذلك انطلاقاً من جملة من الأسئلة المحورية، وهي⁸: كيف تتمّ عمليةُ الخلق الأدبيّ؟ ما هي طبيعةُ هذه العملية من الوجهة النفسية؟ ما العناصرُ الشعورية وغير الشعورية الداخلة فيها وكيف تتركّب وتتناسق؟

أمّا عند العرب فيرى الدارسون بأن بداية دخول المنهج النفسيّ إلى الثقافة العربية كانت عبر الجامعة المصرية حوالي 1938؛ إذ نشر أمين الخولي بحثاً بعنوان "البلاغة وعلم النفس"، ثم توالى الدراسات بعد ذلك تترأ؛ فظهرت دراساتٌ كلّ من العقاد، وطه حسين، التي تناولت أسماء بعض الشعراء القدامى، فكتب العقادُ بحثاً عن أبي نواس، وآخر عن ابن الرومي، وثالثاً عن "نفسية أبي نواس"، والجامعُ بينها أنها تنطلق من حياة الشاعر في محاولة لتفسير شعره.

وظهر كتابُ عز الدين إسماعيل بعد هذه البدايات موسوماً بـ"التفسير النفسي للأدب"، فكان محاولةً أكثر عمقا وإحاطةً، لأنّه استفاد من هذه التجارب الأولية، فتناول فيه مجموعةً من النماذج التطبيقية على الشعر العربي، وأخرى من الشعر الغربيّ منطلقاً من افتراض أساس صاغه في قوله بأن "المنهج النفسيّ التحليلي من الممكن أن يكون مفيداً في فهمنا ومن تمّ في تقديرنا للأعمال الأدبية القديمة منها والحديث على حدّ سواء"⁹. وجاءت دراساته في الكتاب المذكور تطبيقاً مباشراً لمفاهيم التحليل النفسي على النصوص؛ وقد خلص إلى التأكيد على "أن عقدة "أوديب" وما يتفرّع منها من عقد، وكذلك عقدة "أورست"، هي الأساس الذي يمكن البدء منه في عملية التحليل، لأنّ كلّ التأليف المسرحي يُمثّل

بطريقة أو أخرى هذه العقدة وما يتفرّع منها¹⁰. وقد صرّح بأن كتابه هو "محاولة لتوضيح مدى الفائدة التي يمكن جنّها من استخدام المنهج التحليلي النفسي في دراسة الأدب"¹¹؛ يؤكّد صلاحية هذا المنهج في الدراسة الأدبية.

ثم نشر جورج طرابشي دراسته الموسومة بـ "عقدة أوديب في الرواية العربية"؛ فسعى إلى تقديم اجتهادٍ ينأى عن تطبيق التحليل النفسي على الأدب، ويتخذ من التحليل النفسي فيها، كما صرّح، نقطة انطلاق، لا نقطة وصول، وقد أعرب على أن الغاية منها هي كشف أبعاد جديدة للنص الأدبي¹². ومع ذلك فإنّ دراسته للمتون التي تناولها لم تخرج عن "عقدة أوديب" ممّا جعل منهج الدراسة في بعض الأحيان، كما أقرّ بنفسه، يتقلص إلى بعده السيكلوجي الخالص¹³.

2- النقد الجديد وتطبيق الأدب على التحليل النفسي في الغرب

لقد انتهت مناولة تطبيق التحليل النفسي على الأدب إلى تمرين آلي وصل الباب المسدود؛ إذ تحولّت إلى ممارسة محدّدة لتأويل خاص، ونقد جزئي استنفذ كلّ إمكاناته، فيه كثير من التعسّف. فأوشك المنهج على الإفلاس؛ إذ ظلّ عاجزا عن إضاءة العمل الأدبي. فكان لا بدّ من التفكير في تجديد هذا المنهج، فانبعثت دعوة جديدة إلى تطوير هذه العلاقة التي تجمع بين التحليل النفسي والأدب بلغت درجة قلب اتجاهها رأسا على عقب؛ فطُرحت فرضية إمكانية تطبيق الأدب على التحليل النفسي.

وقد نهض بأعباء هذه الثورة التجديدية مجموعة من رواد التحليل النفسي الجدد أبرزهم جان بيلمان نويل، وأندري غرين، وجان بيم، وبرنار بانكو، وبول لوران أسون، وفيليب ويلمارت، وبير بيار... وفي مقدمتهم لاكان، وهو أحد أنجب قراء فرويد.

لقد طرح لاكان فرضية جديدة مفادها أن الأدب هو الآخر مستعدّ لأن يمدّ التحليل النفسي بمقولات جديدة، ويسعّفه في تطوير آلياته، ويفتح أمامه حقولا جديدة خصبة وآفاقا رحبة، وهذا الدرس هو الذي طوّره بيير بيار في كتابه: هل يمكن تطبيق الأدب على التحليل النفسي؟ (2004)، كما لاحظ ذلك حسن المودن¹⁴. فلم يعد التحليل النفسي تطبيقا على الأدب بالمعنى الحرفي لكلمة تطبيق، وإنّما سلّم المشعل للنص، فغدا المحلّل النفسي يمنح الفرصة للعمل الأدبي المقروء من أجل أن يحاوره، وأن يسائل معرفته النفسانية؛ "ذلك لأنّ الأدب هو الذي يمكنه، على حدّ تعبير جاك لاكان، أن يرسل هواء جديدا إلى التحليل النفسي"¹⁵، هواءً ينعشه ويجدّد الدورة الدموية في جسمه بعدما أوشك على الموت.

ونظرا للطابع المفاجئ لقلب الأدوار في هذه العلاقة، فقد عبّر عن إمكانية افتراضها واحد من أعمدة التحليل النفسي للأدب المحدثين، وهو الناقد الفرنسي بيير بيار، في شكل سؤال وصفه المودن بالهجوم¹⁶ الذي لا يخلو من طابع السخرية، جعله عنوانا لأحد كتبه على النحو الآتي: هل يمكن تطبيق الأدب على التحليل النفسي؟¹⁷، وهو سؤال يدعو إلى عدم الركون إلى المألوف، ويخلخل كثيرا من الأسس في مجال النقد والنظرية الأدبيين، ويفتح التفكير في الأدب على آفاق جديدة لم يُفكر فيها من قبل. وهي دعوة نبعت من الإحساس بأنّ النقد الأدبي الذي يطبّق التحليل النفسي على الأدب آل إلى الإفلاس، لأنّ "تطبيق التحليل النفسي على الأدب يؤكّد النظرية التي تم الانطلاق منها، ولا يضيء العمل الأدبي"¹⁸، كما يقول حسن المودن، الذي يفترض بأنّه إذا تم الاعتماد على منهج يقلب الأشياء، سيكون بإمكان الأدب أن يقول أشياء عديدة للتحليل النفسي؛ تغنيه وتمكّنه من تطوير آليات اشتغاله وتجديد أسئلته وخلخله مسلماته ومراجعته.

لقد ذهب بعض الباحثين إلى أن التحليل النفسي هو أحوج للأدب من حاجة الأدب إليه، معتبرا أن "ما يأخذ علم النفس من الأدب أعمق وأكبر ممّا يجوز أن يقحّم على الأدب من الدراسات النفسية"¹⁹. وبناء على هذا التصوّر الجديد للعلاقة

بين الطرفين، فإنَّ التحليلَ النفسي طرح افتراضا جديدا مفاده "أنَّ الأدبَ لا يحدثنا فقط عن الآخرين بل وعن الآخر فينا"²⁰.

فكيف تمثِّل الناقدُ المودن هذه العلاقة؟ وما إسهامه في تعميقها واستنباطها داخل تربة النقد العربي، ثم في تطوير مفهوماتها؟

3- من التحليل النَّفسي إلى التحليل النَّصِّي

إنَّ الدراساتَ العربيةَ الأولى التي اعتمدت التحليلَ النفسي، دراساتٌ ثمينة ومؤسَّسةٌ في نظر الناقد المودن، فإليها يعود الفضلُ في تأسيس أو تطوير نقدٍ أدبي يستند إلى التحليل النفسي²¹، وإضاءة جوانب أخرى مغايرة في المبدع وإبداعه. غير أنَّها تبقى، في رأيه، اجتهاداتٌ لم تتجاوز تطبيقَ التحليل النفسي على النصوص الأدبية من خلال إسقاط عقدٍ نفسانية جاهزة على النصوص وأصحابها؛ و"كأن دور النقد النفسي هو أن يؤكد في كل مرة صحة ما وضعته النظرية النفسية مسبقا من دون مسالة لهذه المسلمة أو تقويم أو إعادة نظر"²². وفي إطار هذه الرؤية النقدية؛ يرى المودن بأنه ليس على التحليل النفسي أن يضيء الأدب، بقدر ما على الأدب أن يضيء التحليلَ النفسي على الدوام، وحجته هي أن الأدب هو الذي يتجدد باستمرارٍ، وبالتالي فهو الأقدرُ على تجديد التحليل النفسي وتطويره. ولكي يحظى الأدبُ بهذا الدور لا بدَّ من إعادة الاعتبار للنصِّ الأدبي وجعله قطب الرّحى؛ ولا سبيل إلى ذلك إلا باعتماد التحليل النَّصِّي.

لقد مكنت خبرة المودن بمنهج التحليل النفسي من أن يدرك محدوديةَ القراءة الإسقاطية للتحليل النفسي على النصِّ الأدبي، فوافق بيير بيار على أن النقدَ الأدبيَّ الذي يطبّق التحليلَ النفسي على الأدب "قد أصابه الإفلاس"²³؛ لذلك تنكَّب عن هذا التوجّه، واختطَّ طريقا خاصا، وصفه نجيب العوفي بـ "مركب النقد الوعر"²⁴، مؤثرا قلقَ البحث وتعبه، "مانحا لنفسه المسافةَ الضروريةَ مع التحليل النفسي العيادي، مستفيدا من الاجتهادات التي طوّرت علاقةَ التحليل النفسي بالأدب"²⁵. ولا سيما جان بيلمان نويل الذي مهدتْ دراساته الطريقَ "ليصبح النصُّ الأدبي هو بؤرة التحليل"²⁶.

يؤمن المودن بسلطة النصِّ وسيادته؛ لذلك يعتمد في دراساته التحليلَ النصي الذي يمهّد الطريق أمام النصِّ الأدبي ليصبح هو بؤرة التحليل وقطب رحاه بالدرجة الأولى، لكن دون "إقصاء كليّ للكاتب أو القارئ أو السياق"²⁷. فالنصُّ في تصوّره يستطيع، بما ينطوي عليه من محمولات لاواعية، أن يوسّع من آفاق القراءة والتأويل، ويفتح مسارب لإضاءة النفس البشرية وكشف أسرارها التي لا تتكشف من خلال سلوكها في الواقع الذي تخفي فيه أكثر مما تظهر بسبب قيود عديدة، بعد النص "مجالا لإبلاغ صوت الكينونة المتكلمة خارج أسيجة الواقع والمقتضيات الاجتماعية"²⁸، على حدّ تعبير الناقد محمّد برادة.

فالنصُّ الأدبيّ، حسب هذا الافتراض يستطيع، بما ينطوي عليه من محمولات لاواعية، أن يوسّع من آفاق القراءة والتأويل. والنقد الذي يركز أساسا على النص من شأنه أن يغني النصوص ويستغني بها، وي طرح على القارئ أسئلة تحفّزه وترشده إلى السبل التي تمكّنه من استكناه ما وراء البنية السطحية للنص ومساءلتها بنشر مطويعها، وتأويل مرموزها. ولا يعني ذلك أن التحليل النَّصِّي، عند المودن، هو المناولة الوحيدة والوصفة السحرية الفريدة القادرة على تحليل النصِّ دون غيرها من القراءات الأخرى، ولكن الأدب في تصوّره هو "هذا الشيء الذي يسمح بأن نقاربه من منظورات متعددة"²⁹، لكل منظور أسئلته وافتراضاته وغاياته وأهدافه. لكن الخاصية المانزة لمنهج التحليل النَّصِّي

النفسي تكمن في غايته المزدوجة؛ إذ "يسمح بالقبض على ناصية النفس، وناصية النص، في آن واحد"³⁰، وهذا مما لا يتأتى لمناهج أخرى، ولا سيما ذات البعد الأحادي.

ليس التحليل النفسي الذي يعتمد المودن بالمنهج المنغلق الذي يدعي الاستغناء بنفسه عما سواه، وإنما هو عنده كما في تصور الناقد جان بيلمان الذي ينظر إليه على أنه "تلك المقاربة التي تستفيد من الدراسات النصية المعاصرة مع إدماجها ضمن مقاربة نفسانية مفتوحة ومنفتحة"، منها الموضوعاتية والأسلوبية والبنوية، بحثا عن العلاقة القائمة بين السرد والنفسي، وبين الكتابة واللاشعور. ومن هنا كان تعامل الناقد مع المنهج يتسم بالمرونة التامة القائمة على التطويع؛ فهو عنده ليس وصفة تقنية صارمة الغاية منها إثبات جدارة المنهج وفعاليتها، ولكنه على العكس من ذلك يسعى "إلى فتح فضاء حوار حر بين النص والقارئ"³¹؛ النص ببنياته ومعانيه وأسراره ورموزه، والقارئ بتجربته وآلياته القرائية وتأويلاته وأفق انتظاره؛ هكذا تتوارى سلطة المنهج لصالح النص "الذي يفرض منهج قراءته وزاوية مقاربه"³²، من خلال الأسئلة الخاصة التي يطرحها على قرائه؛ كل من زاوية تخصصه ونافذة بحثه، ومجال اهتمامه، وهذا هو مصدر سلطة بعض النصوص التي تنطوي على أسئلة كونية وإنسانية ممتدة لا تحدّها حدود الزمن ولا المكان، وربما هذا هو سر استمرار مجموعة من النصوص التراثية بيننا إلى يومنا هذا دون أن يستطيع النسيان إجراء آفته عليها كما فعل ببعضها الآخر.

يعلّمنا المودن من خلال مقترح التحليل النفسي أنّ من أهم مبادئ التحليل النفسي للأدب الإنصات الهادئ للنصوص بدون خلفيات مسبقة أو أفكار جاهزة مفترضا أنّ ما بين الأدب والتحليل النفسي أعمق ممّا نتصور بكثير، "لأن كل واحد منهما يشكل قراءة للإنسان"³³؛ لذلك فكل واحد منهما قادر على إغناء الآخر، مع ترجيح كفة النص وتبويئه مكانة الصدارة بعده جوهر العملية الإبداعية والنقدية على حدّ سواء. إنّه يبدو أكثر تحيزا للإبداع، يدعو إلى ضرورة الإصغاء إلى أسئلة الخطاب الإبداعي ومقولاته، محرّرا النص من قيود المنهج، مقدما قراءة أكثر انفتاحا وتحررا في طرح الأسئلة ووضع الفرضيات.

إذا كانت الممارسة التقليدية للتحليل النفسي تسعى لإظهار انعكاس الحياة على آثار المؤلف، وترجع كفة المنهج، "ولا تحتفظ بشيء من النقد"³⁴، فإن المودن ينهج عكس ذلك فيميل كفة النص والنقد الأدبيين؛ ذلك أنه ينطلق من النص ولا شيء غير النص، فيبحث في معانيه، مستثمرا خبرته المعرفية التي راكمها من خلال مطالعته عن المنهج النفسي عند مؤسسيه ومطوّريه الغربيين وبلغاتهم من جهة، ومن خلال انفتاحه على مستجدات النقد الأدبي عموما من جهة أخرى، ثم يختار المجالات الأثيرة لديه والنقط المضاءة في خطاب النص، وخصوصا تلك التي ترتبط بالنفس وقضاياها وانشغالاتها وأسئلتها، وما يقلقها وما يبعث الانشراح فيها، فيرصدها حركتها ويجسّ نبضها مفترضا أن "النص الأدبي بلا علم منه ولا قصد كتابة مرموزة يمكن فكّ سنّها"³⁵. فيتحوّل النقد إلى "مسألة" "للحقيقة" والنظر إلى ما وراء الواقع المعطى، بشكل يجعل من التخيل مرآة نقدية لما يقدّم على أنه "الحقيقة" في عالم من التوافقات والاصطلاحات"³⁶.

اعتقد عدد من الباحثين لسنوات عديدة أنّ العمل الأدبي هو انعكاس أوتوماتيكي لحياة صاحبه، "وفاتهم أنّ العمل الأدبي يتحرك حركة ذاتية خاصة به، لا حركة تابعة لذاتية صاحبه"³⁷، فليس النص الأدبي وثيقة تاريخية أو سيرة ذاتية طبق الأصل لحياة الفنان أو الأديب؛ ولكنه بنية تخيلية تتعالى عن الواقع حتى وإن تعالقت معه أو بدت كذلك، "الفنان ربما لا يضع في عمله الفني ما هو عليه، بل يُعطي لنا ما يود أن يكون أو ما يمكن أن يصبحه، أو ما يخشى أن يؤول إليه"³⁸. وقد دأب النقد النفسي التقليدي على النظر إلى العمل الأدبي بمعيار مطابقته لحياة صاحبه أو عدم مطابقتها، فإذا حصل التطابق فذلك النصر المبين والكشف النقدي الكبير، وإن لم يحصل صبّ النقد جام غضبه وويله على الشعر

والشاعر جميعاً³⁹، وهذا ما ينأى عنه الناقد المودن الذي يجرد المحلل النفسي من ادعائه المعرفة التامة، ويعدّه مجرد باحث عن معرفة جديدة أو مختبر لمعرفة قديمة؛ لذلك عليه أن "يمنح الفرصة للأعمال الأدبية من أجل أن تتحاوره، وأن تسائل معرفته النفسانية الجامدة"⁴⁰.

يسعى التحليل النصي الذي يقترحه المودن إلى كشف تلك العلاقة التي أصبح السردّي يتداخل فيها بالشعري، مشكّكين صياغةً إبداعية تقوم على محكي شعري بأسلوب إشكالي. كما يسعى إلى كشف انشغال الكتابة الأدبية بذاتها نفسها وطرح أسئلتها الخاصة، بما أنها "حاجة داخلية، وباعتبارها شكلا من أشكال المقاومة الداخلية، أو باعتبارها بديلا لموضوع الرغبة المفقودة"⁴¹.

وإذ يقترح علينا المودن التحليل النصي فإنّه يضع بين أيدينا مناولتين؛ لكل مناوله أسئلتها⁴² الخاصة:

الأولى تمزج بين المقاربة الموضوعاتية والمقاربة النفسانية، وأسئلتها الأساس هي: ماذا يكتب الروائي؟ ما هي الموضوعات الأكثر إلحاحاً وحضوراً؟ ماذا يعني أن يكتب الإنسان؟ ماذا يشكل فعل الكتابة بالنسبة إلى الإنسان؟ ما حاجة الإنسان إلى هذه اللغة الأخرى التي نسميها الأدب؟ ما هي الحوافز التي تدفعه إلى ممارسة الكتابة؟

والأخرى تمزج بين المقاربة الأسلوبية والمقاربة النفسانية، منطلقة من الأسئلة الآتية: كيف يقول النص ما يقوله عن الإنسان؟ ما هي الأساليب والتقنيات السردية التي يستخدمها النص الأدبي، والروائي بالأخص، من أجل قراءة الإنسان في واقعه النفسي؟ كيف تمارس الكتابة الأدبية، والروائية خاصة، تحليلها النفسي للشخصيات الروائية؟

وهي مقارنة كما يبدو تغطي الجانبين الشكلي والمضموني في النص الأدبي مركزة على جنسي الرواية والقصة؛ ذلك أنها تقوم على افتراض أنّ الرواية اليوم من "أجناس الأدب الأكثر تأهيلاً لتقول الكثير للتحليل النفسي عن الإنسان في العصر الراهن"⁴³ من جهة، وتسعى إلى تشييد جسور من الحوار الفعّال والمتبادل بين التحليل النفسي والكتابة القصصية من جهة أخرى؛ "أي نحو التناوب وتبادل الأدوار"⁴⁴، فكلهما يمكن أن يطبّق على الآخر.

4- "عقدة الأخوة"⁴⁵: تأصيل المفهوم في الثقافة العربية

في سعيه الدؤوب إلى تطوير منهج التحليل النفسي، يحاول المودن تقديم قراءات نقدية لمجموعة من النصوص، ويظلّ في ذلك وفيا لمنهج التحليل النصي، مصيخاً سمعه لما تقوله هذه النصوص، وعدّته في ذلك وزاده مجموعة من الافتراضات الجديدة التي يصوغها في شكل أسئلة على النحو الآتي⁴⁶: ألا يمكن للنقد النفسي أن يستمد مفهومات نفسانية جديدة من نصوص أخرى؟ ألا يمكن أن يستوحي عقداً أخرى من نصوص قد تكون قديمة أو حديثة؟ ما الأكثر فائدة بالنسبة إلى الأدب كما بالنسبة إلى التحليل النفسي: أهو العمل على تطبيق مركبات عقدية جاهزة على كلّ النصوص، قديمة كانت أو حديثة، أم السعي إلى استيلاد مركبات عقدية أخرى من هذه النصوص بما يزيد من عمق فهمنا أو تفسيرنا للإنسان ولغته وأدبه؟ ألا يمكن أن نستمد مفهومات جديدة من المحكي الديني الإسلامي؟ وبدل أن نطبق التحليل النفسي على النص القرآني، وأن نسقط عليه تأويلات قد لا تلائمه، أليس من الممكن أن نطبق المحكي القرآني على التحليل النفسي، فنستمد منه بعض المفهومات أو التصورات النفسانية التي تسهم في تطوير التحليل النفسي المعاصر؟⁴⁷

لقد أدرك المودن، على غرار عدد من النقاد، بأنّ المفاهيم الرنانة لعلم لنفس مثل "اللاشعور"، و"الجنس"، و"العقدة"، لم تعد وحدها كافيةً لتحليل النصّ أدبيا كان أم غير ذلك، ولكنها "تحتاج إلى رصيد آخر من المفاهيم حتى تجد مدلولها العلمي وسياقها المرجعي وتبرز مدلولاتها المعلّلة ومستويات تجلياتها"⁴⁸.

ولتنزيل هذه الطموحات واختبار هذه الفرضيات، كانت وجهة المودن في إحدى دراساته النوعية، نحو النصّ المحور والأساس في الثقافة العربية الإسلامية، وهو القرآن الكريم؛ خطاب رب العالمين للنّاس أجمعين الذي جعل الاشتغال به دليل الخيرية كما أخبر بذلك النبي ﷺ في قوله: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"⁴⁹، وكانت عودته هذه بالضبط إلى قصة النبي يوسف عليه السلام، وهي القصة التي وردت كاملةً في سورة يوسف. وقد تناولتها أقلام عديدة دراسةً وتحليلاً وتفسيراً⁵⁰، كلّ من زاوية نظره ومجال اهتمامه.

لكن المودن في تناوله لهذه السورة سلك مسلكاً يُقرّ للقرآن الكريم بأصالته وفردته وتعالیه عن النصوص البشرية بما هو إلهي مقدس، مؤمناً بقدرة هذا النصّ المحور على الإسهام في تطوير معرفتنا بالإنسان وبالعلاقات التي تنظم حياته، وخاصةً من الناحية النفسانية، وكيف لا؟ وهو من تأليف خالق الإنسان وعالم أسرارهِ سبحانه وتعالى.

يفتح المودن دراسته عن سورة يوسف بتسجيل ملاحظة تتعلق بالكمّ الهائل للدراسات التي تناولتها، إلا أنّها، في رأيه، لم تنل حظها من عناية الدراسات النفسانية، إلا نرا قليلاً اعتمد تطبيقاً آلياً للمفاهيم النفسانية الجاهزة، وعلى رأسها "عقدة أوديب". لكن المودن لم يقتنع بهذه العقدة ولم يسلم بمركزيتها في السورة، فكان له رأي آخر، انطلاقاً من تطفنه إلى ملاحظة ذكية يرى فيها بأن قصة النبي يوسف لا تركز على علاقة الطفل بأبويه فقط، ولكنها تولي الصدارة لطرف آخر من العائلة هو الإخوة، وهذا ما سوّغ له بأن يفترض إمكانية احتواء القصة على عقدة مختلفة قد تكون أولى بالعناية والانتباه وتبسيط الضوء من "عقدة أوديب".

وإيماناً منه بالمناولة السالفة الذكر التي ترجّح كفة النص، ينطلق المودن من افتراض جاء في شكل عنوان من عناوين هذه الدراسة هو "من تطبيق التحليل النفسي على النص الديني إلى تطبيق النصّ الديني على التحليل النفسي"، مؤكداً أن هذا الطرح يفرض نفسه استناداً إلى مبرّرين: أولهما هو عودة الخطاب الديني بطريقة قوية في عصرنا الراهن واستثنائه بعناية لافته من قبل الدارسين في مختلف فروع المعرفة، والآخر هو مخالفة المؤلف وتطبيق النصوص الدينية على التحليل النفسي. باعتبار أن هذه النصوص بإمكانها أن تقول أشياء كثيرة للتحليل النفسي، وأن تمدّه بمفاهيم وتصورات نفسانية جديدة. ونحن نتفق معه في هذا الافتراض إيماناً منا بأنّ القرآن الكريم هو كتاب جامع للتشريع والعلوم والأخبار والقصص والأمثال، وفيه من العلوم ما لا يحصى ولا يعدّ، وعجائبه لا تنقضي.

يتساءل المودن، في ظل هذه المقاربة الجديدة التي قلبت الأدوار بين المنهج والنص قائلاً: ألا تقترح علينا سورة يوسف عقدةً أخرى غير هذه العقدة المركزية لأوديب والتي تحولّت إلى مفتاح سحري يفسّر مغاليق النصوص؟ وماذا لو كان محكي يوسف يقول عكس محكي أوديب؟ ألا يدعو كلّ ذلك التحليل النفسي إلى إعادة النظر في مفاهيمه وتصوراته؟

يذهب الناقد إلى أنّ محكي يوسف ومحكي أوديب يشتركان في خاصية واحدة هي أنهما يؤلفان سلسلةً من الحوادث حقيقيةً بقيت خبيثة لغز (نبوءة المنجمين في أسطورة أوديب، ورؤيا يوسف في السورة القرآنية)، ويختلفان بعد ذلك في أشياء عديدة، بسطها الباحث في معرض الردّ على الذين تعاملوا مع الطرفين بمبدأ المشابهة، ونحن نضمّ صوتنا إلى صوته، ونرى أن هذه المقارنة ينبغي أن تنصبّ جميعها على أوجه الاختلاف، وربما لا تصح أصلاً، بالنظر إلى أصل كلّ

تلقي التحليل النفسي في النقد العربي بين التأصيل والإغناء الناقد حسن المودن أنموذجا

محكي؛ فمحكي يوسف محكي قرآني كله حقٌ وصدق، بينما محكي أوديب محكي أسطوري تخيلي يحتمل الكذب والزيادة. وفيما يأتي بيان تقابلي لأوجه الاختلاف هذه وهي تؤكد ما ذهبنا إليه:

أسطورة أوديب	قصة يوسف
الطفل غير مرغوب فيه؛	الطفل محبوب أبيه؛
ثالث: طفل/أم/أب؛	ثالث: طفل/أبوان/إخوة؛
علاقة الطفل بالأم جوهريّة؛	الأم محجوبة وتذكر بصيغة الأبوين؛
الابن هو الذي يسعى إلى الزواج من أمه؛	امرأة العزيز هي التي ستراد الفتى عن نفسه؛
أوديب متهم بزنّي المحارم؛	يوسف متهم بإغراء زوجة العزيز؛
الأسطورة ترى أن أوديب ارتكب جرما ولا بدّ من التوضيح به؛	القرآن يبرئ يوسف ممّا اتّهم به؛

وبناء على هذه المقارنة يرى المودن أن العلاقة بالأبوين في قصة يوسف ليست هي العلاقة المركزية، ولكن هناك علاقة أخرى هي التي تشكّل العقدة الجوهريّة، والتي غاب عن الدراسات النفسانية الانتباه إليها؛ فالأبوان في قصة يوسف يشكلان طرفا واحدا، وبالتالي لا بدّ أن طرفا ثالثا يجب أخذه بعين الاعتبار، وعلاقة الطفل بهذا الطرف الثالث هي التي يبوئها المحكي مركز الصدارة. إنها علاقة الطفل بإخوته، وهي التي لفتت السورة الانتباه إليها منذ المطلع، وذلك في قوله: {لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَكِّلِينَ}، (الآية: 7)، هكذا يصبح الثالث في قصة يوسف على النحو الآتي: الطفل/الأبوان/الإخوة، وهو ثالث استشفّه الباحث من القرآن نفسه، كما في مطلع السورة: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} (الآية: 4)، ومن نهايتها إذ قال: {مَنْ بَعْدِي أَنْزَعَهُ الشَّيْطَانُ بَنِيَّ وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (الآية: 100).

ومن هنا يؤكد الباحث على أنّ الصراع والنزاع في السورة واقع بين يوسف وإخوته، وليس بينه وبين أبويه كما في عقدة أوديب؛ ذلك أن محكي يوسف يبدأ بحادث عنيف مصدره الأساس هو الإخوة، فقد رأوا أنّ أباهم يميل إلى يوسف أكثر واعتبروا ذلك حيفا في حقهم، فاتفقوا على التخلص من هذا الأخ؛ فقالوا: {اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} (الآية: 9). فالعنّف في هذه القصة مصدره الوحيد هو الإخوة الذين يرغبون في الشيء نفسه، ويتصارعون من أجل بلوغه، هذا الشيء هو الانفراد بحبّ الأب بعيدا عن منافسة الطفل المحبوب؛ لذلك حاولوا أن يدفنوه، ولو رمزيا، في غياهب حبّ بعيد. فالأخوة في القصة تعني الرغبة في الشيء نفسه، وهو الخطوة بمكانة مميزة وخاصة عند الأب، فهم يريدون أن ينالوا درجة حبّ يوسف ويحاكوه ويقلّدوه، ومن هنا يستخلص الباحث أن عقدة قصة يوسف تتمظهر فيما يسميه رونيّه جبرار "الرغبة المحاكاتية"، فالإخوة يحاكون يوسف ويقلّدونه ويريدون أن يحلّوا محله، وهذا هو مصدر الصراع في هذه القصة.

ثم يتساءل الباحث: هل من الممكن أن تتحوّل هذه الرغبة المحاكاتية التي تميز "عقدة الأخوة" إلى مصدر للحبّ والخير والحياة بدل أن تكون مصدرا للشرّ والعنف والموت؟ ويجيبنا بالإيجاب؛ إذ يخلص إلى أنّه إذا كانت السورة تقدّم الأخوة في بدايتها بغربة مقلقة، وصراع يكاد يتحوّل قتلًا، فإنها في النهاية تتحوّل إلى أخوة عجيبة تشكل كلا واحدا وقويا وقادرا على مواجهة المحن والصعاب. أخوة تشكّل مرآة يصعب فيها التمييز بين الأنا والآخر، لما بينهما من التماسك والتضامن والمحبة. ونحن نقول أيضا: نعم؛ إذا ظل أحد الطرفين، على الأقل، محافظا على إنسانيته وقيمه النبيلة، وعمل على تطهير نفسه

وتزكيتها بالإيمان، وراعى في معاملته للطرف الآخر الله تعالى وما أعدّه من أجرٍ وثواب للصّابرين على أذى الغير، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس.

لقد ثار المودن، في جراءة الباحث، على "عقدة أوديب" رغم شهرتها، وأكد أنّ "عقدة الأخوة" أخطر وأهمّ في تكوين الذات الإنسانية وبناءها النفسي والاجتماعي، فهي تسمح بتجاوز التصوّر الفرويدي الذي يركّز على النموّ النفسي-الجنسي؛ ذلك أن القصة القرآنية، بحسب المودن، تعلّمنا كيف ندبّر علاقاتنا مع الآخر، بتربية أنفسنا على مبادئ التشارك والتضامن والتعاون والتسامح والتعايش، وبالععمل على معالجتها من المنافسة والغيرة والكراهية والعنف.

5- آفاق جديدة للخروج من أزمة الأدب والنقد

يقرّ عدد من الدارسين بوجود "أزمة" في الأدب⁵¹، وهي أزمة عامة تشمل النقد والإبداع عند بعضهم؛ لا يختلف فيها الوسط الفرنكوفوني عن نظيره الأنجلو-أمريكي. والناقد الذي يتمتع برؤية مختلفة وموسعة لا تقتصر جهوده على قراءة الأعمال وتحليلها فحسب، ولكن تتعدّاه إلى الانشغال بتلك الأسئلة الكبرى والمؤرقة التي يحمل صاحبها همّ التنظير متجاوزاً مجال النقد الأدبي إلى النظرية الأدبية. هكذا يبدو المودن في كتابه الجديد من قال إن الناقد قد مات؟ الذي تناول فيه جزءاً من أزمة النقد الأدبي اليوم، وطرح فيه حلولاً وافق فيها النقاد بيار بيار، نرى بأنها جديرة بالتفكير والمحاورة.

إذا كان بعض الدارسين الغربيين قد أعلنوا الأزمة واستعجلوا "نعي الناقد"، فإن أزمة النقد عند المودن تتلخص في سؤال مغاير وهو: أيتعلق الأمر بالاختفاء النهائي لشيء اسمه: النقد الأدبي أم أن الأمر يتعلق بإفلاس نوع أو أنواع من النقد وأنه من الممكن ابتكار أو إعادة ابتكار نوع أو أنواع جديدة من النقد الأدبي؟⁵². وينطلق من تشخيص الوضعية النقدية الحالية مستعرضاً أصناف النقاد في شكل جواب عن سؤال مهم طرحه هو: من هو الناقد؟ فكان الجواب سؤالاً أيضاً يبيّن وجود خلط في تمثيل مهمة الناقد: "أهو هذا الذي ينتج معرفة حول العمل الأدبي أم هو هذا الذي يؤدي دور الوسيط بين المؤلف والقارئ أم هو هذا الحارس الرمزي لأرض الآداب أم هو مجرد قارئ قد يتحول إلى عائق يفسد جسور التواصل بين المؤلف والقارئ؟"⁵³.

وفي بحثه عن حلول لأزمة النقد الأدبي يقترح المودن ثلاث مفهومات جديدة أو لنقل ثلاثة أشكال من النقد الجديد استوحاها من قراءته الفاحصة للنقد النفسي الغربي، ولا سيما عند الناقد الفرنسي بيار بيار، يمكنها أن تضخ هواءً جديداً في رئة النقد الأدبي، ولا سيما النفسي منه؛ هذه المفهومات يوظفها تصور جديد للكتابة النقدية ينقلها من تلك الكتابة العلمية الجادة والتي تكاد تموت من جديتها⁵⁴ إلى كتابة جديدة "أكثر حيوية، أي إبداعية"⁵⁵، وهذا التصور هو ما يعرف بـ *essai-fiction* (المحاولة-التخييل)، والذي يفضّل المودن ترجمته بـ "التخييل النظري"، فما هي هذه البدائل الثلاثة؟

1- النقد التدخلي: يختلف عن النقد التقليدي في كونه "لا يسعى إلى بناء معنى عن نص ما، أو عن عمل ما، بل إنه يتدخل من أجل تصحيح صورة أو معلومة أو حقيقة"⁵⁶، وغاية هذا النقد هي إعادة البحث من جديد وعدم الركون لما قالته الدراسات النقدية السالفة، وهذا ما قام به المودن عندما أعاد قراءة مسرحية هاملت مشكّكاً في الفرضية التي تبناها فرويد ولاكان من بعده وهي أن الجريمة الأساس هي "قتل الأب من قبل ابنه"، واقترح فرضية بديلة تقول بجريمة أساس أخرى وهي قتل "الأخ لأخيه"؛ قتل كلاوديوس لأخيه هاملت والاستيلاء على عرشه وزوجته! ينبني هذا الصنف من

النقد على فرضية ترى بأن "هناك عناصر تكميلية يضيفها النقد، أيّ نقد، إلى النص، واستكمال النص ضروري في كل قراءة ونقد"⁵⁷، وهذا قريب مما اقترحه آيزر أيضا عبر نموذج "القارئ الضمني" الذي يعمل على ملء فجوات النص وبباضاته.

2- النقد التلبيسي: إذا كان المفهوم الأول يخدم بالدرجة الأولى النقد؛ فإن هذا المفهوم مقترح لإحياء الأدب الذي تواترت الآراء على موته، وهو مفهوم استعاره من بيير بيار. والنقد التلبيسي يمكن من إعادة كتابة أعمال أدبية وفق الرؤية التي يراها الناقد ويريدها؛ ومعنى ذلك أن الناقد "سيحلّ محلّ شخصية في الرواية، وسيعمل على أن يعيش المواقف والوضعيات جميعها التي عاشتها هذه الشخصية"⁵⁸؛ أي أنه يتلبّس بشخصية من شخصيات الرواية ويتدخل جزئيا في تغيير مسار أحداثها كأن ينقذ شخصية من الموت مثلا. وهذا العمل معناه أن تنجز تحولاً في النص من داخله، وهي تجربة نفسية حسب بيار وليست مادية. وهذه النسخة الجديدة التي ينتجها الناقد يمتزج فيها النقد بالتخييل وليست بديلة عن النسخة الأصل، ولكنها نسخة متخيلة عن الأصل.

3- النقد التجويدي: ينطلق من منح الناقد حرية أوسع تمكّنه من تجويد بعض الأعمال الأدبية التي لم يحالف الحظ أصحابها كما حالهم في أعمال أخرى، بمعنى أن مهمة الناقد "لا تتوقف عند حدود الحكم على العمل الأدبي بأنه جيد أو رديء، بل مهمته أن يعيد كتابة العمل بالشكل الذي يجعله في مستوى الأعمال الأخرى للمؤلف"⁵⁹. ويبدو هذا "الناقد التجويدي" مفهوما مضاعفا يلتبس فيه الناقد بالكاتب؛ فهو ناقد يحكم على عمل أدبي بالفشل ثم يعيد كتابته والنتيجة هي "نص القارئ"⁶⁰.

يقوم هذا النقد على افتراض أساس مفاده أن في كل سيرورة إبداعية هناك دوما جزء قابل لإعادة الكتابة؛ وعليه فإن هذا النقد الجديد يحتاج في نظر المودن إلى قراءة فاعلة لا تكتفي بالتلقي السلبي، بل تنخرط في هذه السيرورة، حيث ترتبط القراءة والكتابة في حوار جدلي متواصل؛ الشيء الذي يتطلب من الناقد أن يمتلك قدرات إبداعية مثل الكاتب

إن النقد الأدبي، في رأي المودن، إذا أراد أن يخرج من أزيمته، فعليه أن يفكر في تجديد نفسه، وابتكار أشكال جديدة من الكتابة: كتابة مرنة تميل به نحو التخييل الذي يصبح سمة مشتركة بينه وبين الأدب؛ فالنقد، حسب المودن، ليس حكما ولا علما، بل هو تخييل وابتكار أيضا... يفتح على التخييل أكثر، ويتخلص من ذلك التضخم العقلاني الذي يوهمنا بأنه قادر على الإحاطة بحياة الشخصية الأدبية"⁶¹، ويبدو في رؤيته هذه مخالفا لما تبناه يقطين موافقا فيه دعوة غوتسشال إلى "علمية الأدب"⁶².

إنه لا حياة للنقد من غير أدب، ولا للأدب من غير نقد؛ واستمرارهما رهين بالاتصال بينهما؛ أو لنقل بالتواصل؛ أي بالحوار الجدلي الفعال؛ وصورة هذا الحوار تنتج كتابة جديدة هي أقرب إلى إعادة الكتابة منها إلى النقد بمفهومه العلمي الجادّ، هذه الكتابة هي ما بات يعرف بالدراسة- التخييل *essai-fiction* حسب ترجمة المودن، والتي تمكن ترجمتها بـ "النقد المُخَيَّل" أيضا.

لا شك في أهمية أن يكون السبق لهذا الشكل من الكتابة عربيا؛ يدشنه الكاتب المغربي كيليطو ممارسة؛ وها هو المودن يسهم في التأسيس له تنظيرا ويقترحه جزءا في حل "الأزمة". أفتراه يكون اتجاها نقديا عربيا أصيلا يغني بجدارة التقاليد الأدبية والنقدية العالمية التي لا تعترف إلا بما أنتجه الفكر الغربي؟

انطلاقاً مما سلف يمكننا تسجيل ما يأتي:

يُعتبر الناقد المودن من النقاد الذين استطاعوا أن ينعثقوا من أسر الانهيار بالمناهج والنظريات والمفاهيم والمصطلحات الوافدة على النقد العربي من الضفة الأخرى. فانطلق من التسليم بمحدودية الاجتهادات البشرية مهما بلغت، ورأى، شأنه شأن بعض النقاد المؤصلين، بأن ما يأتي من الغرب ليس مقدساً؛ فهو ليس سوى اجتهادات بشرية يعترها حظها من الخلل والنقص، ومنها التحليل النفسي الذي رأى بأنه يحتاج لإصلاح وتطوير وتطعيم.

وقد آمن بقدره هذا المنهج على تحليل الأدب تحليلاً يسمح بتفجير معاني النصوص، واستخراج قضايا وخبيا النفس البشرية التي تحفل بها، من خلال عدة إجراءات واجتهادات لم تسلم بكل ما قيل وتركز إليه، ولكن عملت على إعادة النظر فيه، وطرح فرضيات جديدة حول العلاقة بين التحليل النفسي والنقد الأدبي، وبهذا يكون "قد أعاد للنقد النفسي توازنه المفقود وحضوره المتميز"⁶³، بشهادة أحد النقاد البارزين.

ولا نتفق مع ما ذهب إليه سعيد يقطين حينما عدّ أن المناولة النصية للمودن تفتح المجال أمام المنهج التكاملي الذي يقر بأن المناهج سواء⁶⁴؛ ولكن نرى بأن قول المودن بأن النص هو الذي يفرض منهج قراءته وزاوية مقارنته لا ينفي إقامته في تخصص التحليل النفسي، وكل انفتاح على منهج آخر فإنما يكون من أجل إضاءة قضية من القضايا، أو تعزيز معنى من المعاني، وهذا لا يقدح في هذه المناولة بقدر ما يبين مرونتها، وليس ذلك عيباً، فريشار أبز ناقد موضوعاتي يقول: "إننا نستعين بكل هذه المحاولات العلمية لالتقاط النبض الأساسي للنص الذي نعتبره واقعا حيا"⁶⁵.

فقد استطاع المودن تطوير بعض المفهومات النفسانية بالارتكاز على وعي مضاعف يمزج بين قضايا التحليل النفسي الفرويدي، وما طاله من تحديث على يد كل من لاكان وبيلمان وبير بيار من جهة، وبين قضايا النقد الأدبي ومستجداته من جهة أخرى، مانحاً الأولوية للنص الأدبي على حساب المنهج النقدي النفسي، فأصبح النقد النفسي، معه، ينقل اهتمامه من الكاتب وتاريخه إلى النص ورمزيته. ونجاحه في هذا المسعى، في اعتقادنا، راجع إلى كونه جاء إلى التحليل النفسي من الأدب، وليس العكس، فهو ابن الأدب وخرّج جامعته الملم بقضاياها ومستجداته؛ لذلك ينتصر له.

إنّه يُبشّر بنقدٍ متطور يدعو إلى إعادة قراءة تاريخ العلاقة بين التحليل النفسي والأدب، مستحضراً أهم الدراسات النظرية الجديدة عند الغربيين التي عملت على إعادة قراءة هذه العلاقة، محاولاً الإسهام على قدم المساواة، مع الباحثين الغربيين، في اقتراح قراءة تأصيلية لإشكالية التحليل النفسي للأدب. وقد أسعفه في ذلك مراعاته لخصوصية الإنتاج العربي؛ فاشتغل به برؤية نقدية فاحصة تحفظ له فرادته واختلافه عن النتاج الأدبي الغربي، وهكذا مكنته عودته إلى القرآن الكريم من تسليط الضوء على عقدة نفسية كانت مهملة في التحليل النفسي، وجعلها عقدة مركزية في تفسير العلاقات الإنسانية، وهي "عقدة الأخوة". ودراسة المودن التي تناول فيها هذه العقدة تحتاج، في اعتقادنا، للترجمة إلى اللغات الأخرى ليعرفها الغربيون. فإذا كانت "عقدة الأخوة" قد أشير إليها في النقد الغربي، فإنها لم تلق من تسليط الضوء والعناية مثلما لقيته من لدن المودن في النقد العربي، فله يعود الفضل في تأصيلها واستنباتها في الثقافة العربية.

إن في استبعاد "عقدة الأبوة" توافقاً مع الثقافة العربية الإسلامية؛ فمن المعلوم أن الإسلام أدان العقوق أيما إدانة، وحث على برّ الوالدين، إذ قال سبحانه: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا

كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (الإسراء: 23-24). فكان لذلك كبير أثر في التقليل من صراعات الأبناء مع آبائهم، والواقع خير شاهد على ذلك؛ فقد تجد أحدهم فاسد الأخلاق سكيراً عربيداً فاسقاً فظاً لکنه يحترم والديه ولا يجرؤ على الإساءة إليهما، اللهم بعض الحالات التي بدأت تظهر مؤخراً بسبب الإفراط في تناول المخدرات الخطيرة، وهي نشاز على كل حال. أما صراعات الإخوة فكثيرة لأسباب عديدة منها: الحسد، والسعي لكسب حظوة الوالدين، والإرث، وخصام الزوجات وغيرها.

ليست الغاية من "عقدة الأخوة" تكريس العداوة بين الأخوة في المجتمع، بل العكس تماماً، وهو "البحث عن السبل الكفيلة بتحويل العداوة إلى محبة، والتنافس إلى تعاون، والصراع إلى تضامن، من أجل مجتمع إنساني أفضل"⁶⁶، وهذه غاية نبيلة يتبناها النقد مع المودن؛ إذ يسعى إلى ما هو إنساني وكوني، إلى البحث عما يصلح حال الإنسان في علاقته بأخيه الإنسان في عصر كثرت فيه الخلافات والصراعات.

وكأنّي بالناقد المودن، بعودته إلى القرآن الكريم، يُلَفْتُ انتباه النقاد العرب إلى هذا المعين الفيّاض الذي لا ينضب، داعياً إياهم إلى الغزف منه، مبرهنًا على أنّ العودة إليه يمكن أن تفتح أمام النقد العربي آفاقاً رحبةً لتطوير آلياته وتجديد مفاهيمه وأسئلته، مركزاً على "الاعتبار"⁶⁷ بوصفه غاية القصص القرآني.

وقد بات هذا الأمر متاحاً بالنظر إلى العودة الملحوظة إلى القرآن الكريم في العقود الأخيرة من خلال دراساتٍ متنوّعة تنتمي إلى مجالات معرفية متباينة من قبيل: الحجاج، والسرد، واللسانيات، والسميائيات، وتحليل الخطاب...، فهذا النص الذي شكّل مصدر البلاغة العربية القديمة قادراً اليوم على تطوير مستجدات البلاغة الحديثة والأسلوبيات وتحليل الخطاب والنقد الأدبي، مما يؤشّر على راهنيته وصلاحيته لكل عصر وحين. بل إنّ عودة الأمة إليه اليوم بفهم عميق واجتهاد في تنزيله وتنزيله واقعياً يعالج مستجدات العصر وقضاياها الراهنة، ويجعل من القرآن منهج حياة، أضحت ضرورة حضارية لا بدّ منها إذا أرادت الأمة أن تخرج من تخلفها وتأخرها الذي ترزح تحت وطأته.

إنّ اجتهادات المودن تؤكد، باللموس، إمكانية إسهام النقد العربي في تطوير المناهج النقدية الغربية وإثرائها، بما يسمح له بالمشاركة في إغناء المعرفة النقدية العالمية؛ بشرط التمثّل الصحيح لمقولات هذه المناهج وفلسفاتها في أصولها الغربية، والوعي التام باختلاف الشروط الثقافية بين الوسطين العربي والغربي ومراعاة خصائص النصوص العربية والظروف التي أنتجت عند محاولة استنبات هذه المناهج في التربة العربية.

وفي الختام ندعو إلى تشجيع العقل النقدي العربي على التأصيل لمناهج نقدية في تحليل الخطاب من داخل الثقافة العربية توازي ما أنتجته نظيره الغربي؛ فليست المعرفة مقصورةً على الغرب وحدهم. أجل، إنّه لأمر ممكن إذا تخلصنا من الانهيار بالغرب وبما يأتي منه، وشجّعنا المحاولات التأصيلية ودعمناها، وآمنّا ببراء تراثنا وثمناته مستعيزين به عن استيراد النظريات الغربية التي ينبغي أن نأخذ منها بحكمةٍ وتعقلٍ ووفق حاجتنا؛ لكن الأمر يحتاج إلى تكاتف الجهود وتوحيد الرؤية وتكاملها، والعمل بالمشاريع المنظمة والمهيكلّة، مع وجود إرادة حقيقية للإصلاح والتطلّع نحو التقدم.

الهوامش والإحالات:

¹ مجموعة باحثين (1997)، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة رضوان ظاظا، عالم المعرفة، ع. 221، ص. 10.

² إبراهيم أولحيان (2013) تقديم كتاب حسن المودن القراءة والتحليل النفسي، قراءات، شهادات، حوارات، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط 1، ص. 7.

- ³ يعتبر الناقد حسن المودن التحليل النفسي فناً، وليس علماً، يُنظر في ذلك مقدمة ترجمته لكتاب التحليل النفسي والأدب، وظهر غلافها.
- ⁴ بيلمان (1997)، التحليل النفسي والأدب، ترجمة حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، ص. 15.
- ⁵ مجموعة باحثين، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ص. 50.
- ⁶ فرويد (1978)، الهذيان والأحلام في الفن، ترجمة جورج طرابشي، بيروت، ص. 7.
- ⁷ فرويد (1975)، التحليل النفسي والفن دافينشي دوستوفسكي، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ط1، ص. 91.
- ⁸ سيد قطب (2003)، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، ط8، ص-ص. 207-208.
- ⁹ عز الدين إسماعيل (د.ت)، التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب، ط4، ص. 265.
- ¹⁰ نفسه، ص. 266.
- ¹¹ نفسه، ص. 267.
- ¹² جورج طرابشي (1987)، عقدة أوديب في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، ط2، ص. 5.
- ¹³ نفسه، ص. 6.
- ¹⁴ حسن المودن (د.ت)، القصة القصيرة والتحليل النفسي، مقاربات للنشر والصناعات والثقافات، ص. 8.
- ¹⁵ نفسه، ص. 8.
- ¹⁶ حسن المودن (2013)، القراءة والتحليل النفسي قراءات، شهادات، حوارات، إشراف وتنسيق: إبراهيم أولحيان، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط1، ص. 107.
- ¹⁷ Pierre Bayard (2004), *Peut-on appliquer la littérature à la psychanalyse*, ed. Minuit, Paris.
- ¹⁸ مجموعة باحثين، حسن المودن القراءة والتحليل النفسي قراءات، شهادات، حوارات، ص. 112.
- ¹⁹ محمد عبد المنعم خفاجي (1995)، مدارس النقد الأدبي الحديث، الدار المصرية اللبنانية، ط1، ص. 192.
- ²⁰ بيلمان، التحليل النفسي والأدب، ص. 18.
- ²¹ ومن أهمها: "أبو نواس الحسن بن هاني" للعقاد، و"نفسية أبي نواس" للنويهي، و"عقدة أوديب في الرواية العربية" لجورج طرابشي.
- ²² المودن (2024) المودن، الإخوة الأعداء في السرد العربي والغربي، مقارنة نفسية جديدة، كنوز المعرفة، عمان، ط1، ص. 10.
- ²³ حسن المودن، "هل يمكن تطبيق الأدب على التحليل النفسي؟"، ضمن كتاب: حسن المودن القراءة والتحليل النفسي، قراءات، شهادات، حوارات، ص. 112.
- ²⁴ نجيب العوفي، "جدل التحليل النصي، والتحليل النفسي"، ضمن حسن المودن القراءة والتحليل النفسي، قراءات، شهادات، حوارات، ص. 17.
- ²⁵ أولحيان، حسن المودن القراءة والتحليل النفسي، قراءات، شهادات، حوارات، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط1، 2013، ص. 8.
- ²⁶ محمد برادة، "توسيع آفاق القراءة والتأويل"، ضمن حسن المودن القراءة والتحليل النفسي، قراءات، شهادات، حوارات، ص. 13.
- ²⁷ أولحيان، حسن المودن القراءة والتحليل النفسي، قراءات، شهادات، حوارات، ص. 8.
- ²⁸ محمد برادة، "توسيع آفاق القراءة والتأويل"، ص. 14.
- ²⁹ حسن المودن (2009)، الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، ص. 7.
- ³⁰ العوفي، "جدل التحليل النصي، والتحليل النفسي"، ص. 21.

- ³¹ المودن، الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي، ص.8.
- ³² نفسه، ص.8.
- ³³ المودن، حسن المودن القراءة والتحليل النفسي، قراءات، شهادات، حوارات، ص.173.
- ³⁴ محمد الدغمومي (1999)، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط1، ص.191.
- ³⁵ المودن، "هل يمكن تطبيق الأدب على التحليل النفسي؟"، ضمن كتاب حسن المودن القراءة والتحليل النفسي، قراءات، شهادات، حوارات، ص.99.
- ³⁶ المودن، الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي، ص.224.
- ³⁷ مصطفى ناصف (د.ت)، دراسة الأدب العربي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ص.145.
- ³⁸ نفسه، ص.145.
- ³⁹ نفسه، ص.149.
- ⁴⁰ حسن المودن (د.ت)، القصة القصيرة والتحليل النفسي، مقاربات للنشر والصناعات والثقافات، ص.8.
- ⁴¹ المودن، الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي، ص.225.
- ⁴² نفسه، ص-ص.9-10.
- ⁴³ نفسه، ص.24.
- ⁴⁴ المودن، القصة القصيرة والتحليل النفسي، ص.9.
- ⁴⁵ المقالة التي سنتناولها منشورة تحت عنوان "قراءة نفسانية في قصة يوسف عقدة الأخوة أولى من عقدة أوديب"، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية، ع 10، المجلد الثالث، خريف 2014، ص-ص.37-47، وتشكل مبحثا ضمن الكتاب الجديد "الإخوة الأعداء" الصادر في 2023.
- ⁴⁶ المودن، الإخوة الأعداء في السرد العربي والغربي، ص.12.
- ⁴⁷ نفسه، ص.25.
- ⁴⁸ الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، ص.190.
- ⁴⁹ الترمذي: سنن الترمذي، تحقيق رائد بن صبري ابن أبي علفة، دار الحضارة، الرياض، ط2، 1436هـ/2015م، رقم 2909.
- ⁵⁰ منها على سبيل التمثيل: قصة يوسف عليه السلام دراسة أدبية لمحمد رشدي عبيد، وحياء يوسف لمحمد شلي، ويوسف في القرآن والتوراة لزاهية الدجاني، ورواية "أنا يوسف" لأيمن العتوم.
- ⁵¹ رصد أشكال هذه الأزمة سعيد يقطين كما عبر عنها عدد من الدارسين الغربيين، واستعرض مقترحاتهم للخروج منها، وذلك في أحد فصول كتابه الفكر الأدبي العربي والذي عنوانه بـ"الدراسة الأدبية اليوم: الواقع والآفاق"، ص.25 وما بعدها.
- ⁵² حسن المودن (2024)، من قال إن الناقد قد مات؟ ضد بارت، مكدونالد، مانغينو، منشورات المتوسط، ميلانو- إيطاليا، ص.51.
- ⁵³ نفسه، ص.51.
- ⁵⁴ Philippe Mangeot, Lise Wajeman : Fiction Critique : « Entretien avec Marc Escola », Vacarme 2011/1 (N° 54), p-p.42- 43.
- ⁵⁵ Ibid, p-p.42- 43.
- ⁵⁶ المودن، من قال إن الناقد قد مات؟، ص.73.
- ⁵⁷ نفسه، ص.97.

- ⁵⁸ نفسه، ص. 110.
- ⁵⁹ نفسه، ص. 115.
- ⁶⁰ نفسه، ص. 116.
- ⁶¹ نفسه، ص. 47.
- ⁶² سعيد يقطين (2014)، الفكر الأدبي العربي البنيات والأنساق، صفاف- دار الأمان- الاختلاف، ط1، ص. 46.
- ⁶³ عز الدين التازي، "بصدد المشهد النقدي بالمغرب قراءة في تجربة الناقد حسن المودن"، ضمن كتاب حسن المودن القراءة والتحليل النفسي، قراءات، شهادات، حوارات، ص. 67.
- ⁶⁴ يقطين، الفكر الأدبي العربي البنيات والأنساق، ص. 182.
- ⁶⁵ حميد لحمداني (2014)، سحر الموضوع، عن النقد الموضوعاتي في الرواية والشعر، مطبعة أنفو، فاس، ط2، ص. 32.
- ⁶⁶ المودن: الإخوة الأعداء، ص. 15.
- ⁶⁷ قال تعالى مبيناً إحدى غايات القصص القرآني: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ} (يوسف: 111)

لائحة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص

- الترمذي محمد بن عيسى (2015) سنن الترمذي، تحقيق رائد بن صبري ابن أبي علفة، دار الحضارة، ط2، الرياض، خفاجي محمد عبد المنعم (1995)، مدارس النقد الأدبي الحديث، الدار المصرية اللبنانية، ط1.
- الدغمومي محمد (1999)، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، البيضاء.
- طرابشي جورج (1987)، عقدة أوديب في الرواية العربية، دار الطليعة، ط2، بيروت.
- عز الدين إسماعيل (د.ت)، التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب، ط4، القاهرة.
- فرويد سيغموند (1975)، التحليل النفسي والفن دافينشي دوستوفسكي، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، ط1، بيروت.
- فرويد سيغموند (1978)، الهذيان والأحلام في الفن، ترجمة جورج طرابشي، بيروت.
- قطب سيد (2003)، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، ط8، القاهرة.
- مجموعة باحثين (2013)، حسن المودن القراءة والتحليل النفسي قراءات، شهادات، حوارات، إشراف وتنسيق: إبراهيم أولحيان، المطبعة والوراقة الوطنية، ط1، مراكش.
- مجموعة باحثين (1997)، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة رضوان ظاظا، عالم المعرفة، ع. 221، الكويت.
- المودن حسن، "قراءة نفسانية في قصة يوسف عقدة الأخوة أولى من عقدة أوديب"، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية، ع 10، المجلد الثالث، خريف 2014، ص. 37-47.
- المودن حسن (2009)، الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت.
- المودن حسن (د.ت)، القصة القصيرة والتحليل النفسي، مقاربات للنشر والصناعات والثقافات، فاس.
- المودن حسن (2024)، من قال إن الناقد قد مات؟ ضد بارت، ماكدونالد، مانغينو، منشورات المتوسط، ميلانو- إيطاليا.
- المودنحسن (2024)، الإخوة الأعداء في السرد العربي والغربي، مقارنة نفسية جديدة، كنوز المعرفة، ط1، عمان.
- ناصر مصطفى (د.ت)، دراسة الأدب العربي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.
- نويل جان بيلمان (1997)، التحليل النفسي والأدب، ترجمة حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافة، ط1.

Philippe Mangeot, Lise Wajeman : Fiction Critique : « Entretien avec Marc Escola », Vacarme 2011/1 (N° 54), p-p.42- 43.

Pierre Bayard (2004), *Peut-on appliquer la littérature à la psychanalyse*, ed. Minuit, Paris.